مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

# الثنائيات الضدية في سورة البقرة
# بين البلاغة العربية والبلاغة الجديدة
# دراسة بلاغية حجاجية في نموذجين مختارين(*)

https://doi.org/10.55074/hesj.vi56.1944

**أحمد نتوف**
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب في جامعة قطر
nattofahmad@qu.edu.qa

*) تاريخ تسليم البحث 19/6/2025 تاريخ قبوله للنشر 10/8/2026
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

# الثنائيات الضدية في سورة البقرة
# بين البلاغة العربية والبلاغة الجديدة
# دراسة بلاغية حجاجية في نموذجين مختارين

**أحمد نتوف**
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب في جامعة قطر

## الملخص

يسعى هذا البحث إلى دراسة ظاهرة التضاد في النص القرآني من خلال بيان مفهومها اللغوي والاصطلاحي، وتحليل حضورها في سورة البقرة في ضوء البلاغة العربية والبلاغة الجديدة، ولإنجاز ذلك يختار البحث نموذجين دالين من الثنائيات الضدية في سورة البقرة، يمثلان نمطين مختلفين من حضور التضاد: نمط التضاد اللفظي الصريح كما في ثنائية النور والظلمات، ونمط التضاد الدلالي التصويري الحجاجي كما في ثنائية الإنفاق رياءً والإنفاق ابتغاء مرضاة الله، ويقف على أنواع العلاقات بين الطرفين والسياق الذي ترد فيه، ويحلل أثرها في إيضاح المعنى، وتصويره، ووظائفها النصّية وجمالياتها البلاغية، وكذلك ينطلق من الحاجة إلى تحليل مثل هذه الظواهر البلاغية واللغوية في القرآن الكريم في ضوء منهجين متكاملين هما البلاغة العربية التقليدية بعلومها الثلاثة والبلاغة الجديدة ولا سيما الحجاج فيها، وتفيد هذه المقاربة في الكشف عن طرائق ترسيخ الدلالات القرآنية في ذهن المتلقي، وبيان الصلة بين الجمال البلاغي والوظيفة الإقناعية، وتكشف عن أبعاد أعمق في فهم مقاصد القرآن، ولتحقيق ذلك اعتمد البحث على منهج يستفيد من المقاربة البلاغية الحجاجية التي تجمع بين أدوات البلاغة العربية القديمة ومفاهيم البلاغة الجديدة، ولا سيما الحجاج عند بيرلمان.

ولا يدّعي البحث استقصاء جميع الثنائيات الضدية في سورة البقرة، وإنما يختار نموذجين دالين يمثلان نمطين مختلفين من التضاد: نمط التضاد اللفظي الصريح كما في ثنائية النور والظلمات، ونمط التضاد التصويري الحجاجي كما في ثنائية الإنفاق رياءً والإنفاق ابتغاء مرضاة الله، ويسعى البحث إلى تجاوز المجاورة بين البلاغتين إلى بناء قراءة تكاملية ترى في الأدوات البلاغية القديمة، كالنظم والاستعارة والمقابلة والتشبيه التمثيلي، طاقات حجاجية تسهم في بناء المعنى وتوجيه المتلقي.

**الكلمات المفتاحية:** التضاد، الثنائيات الضدية، الطباق، المقابلة، النظم، البلاغة العربية، البلاغة الجديدة، الحجاج، السلم الحجاجي.

# Contrastive Binaries in Surah Al-Baqarah between Classical Arabic Rhetoric and New Rhetoric: A Rhetorical-Argumentative Study of Two Selected Models

**Ahmed Natouf**
Associate Professor of Rhetoric and Criticism
Department of Arabic Language and Literature, College of Arts and Sciences, Qatar University

## Abstract

This research seeks to study the phenomenon of opposition in the Qur'anic text by clarifying its linguistic and terminological meanings and analyzing its presence in Surat Al-Baqarah in light of Arabic rhetoric and New Rhetoric. To this end, the research selects two representative models of antithetical dualities in Surat Al-Baqarah, each representing a different mode of opposition: explicit lexical opposition, as in the duality of light and darkness, and figurative argumentative semantic opposition, as in the duality between spending ostentatiously and spending in pursuit of Allah's pleasure. The research examines the types of relations between the two opposing sides and the contexts in which they occur, and analyzes their effect in clarifying and depicting meaning, as well as their textual functions and rhetorical aesthetics.

The study proceeds from the need to analyze such rhetorical and linguistic phenomena in the Noble Qur'an through two integrated approaches: traditional Arabic rhetoric, with its three sciences, and New Rhetoric, especially its argumentative dimension. This approach helps reveal the ways in which Qur'anic meanings are established in the mind of the recipient, clarifies the relationship between rhetorical beauty and persuasive function, and uncovers deeper dimensions in understanding the purposes of the Qur'an. To achieve this, the research adopts a method that benefits from a rhetorical-argumentative approach combining the tools of classical Arabic rhetoric with the concepts of New Rhetoric, particularly Perelman's theory of argumentation.

The research does not claim to survey all antithetical dualities in Surat Al-Baqarah. Rather, it selects two representative models that embody two different patterns of opposition: explicit lexical opposition, as in the duality of light and darkness, and figurative argumentative opposition, as in the duality between spending ostentatiously and spending in pursuit of Allah's pleasure. The research seeks to move beyond merely juxtaposing the two rhetorics toward constructing an integrative reading that views classical rhetorical tools-such as arrangement, metaphor, antithesis, and analogical similitude-as possessing argumentative potential that contributes to constructing meaning and guiding the recipient.

**Keywords:** Antonymy; Antonyms; Binary Oppositions; Antithesis; Traditional Arabic Rhetoric; New Rhetoric; Argumentation; Argumentative Scale; Extended Antithesis; Structural Arrangement (Nazm).

## مقدمة البحث:

تقوم الظواهر البلاغية في النص القرآني بوظائف تتجاوز التزيين اللفظي إلى بناء المعنى وتوجيه المتلقي وترسيخ القيم، ومن هذه الظواهر ظاهرة الثنائيات الضدية، التي تتيح للنصّ أن يعرض المعاني في صورة تقابلية تكشف الفروق بين المسارات والقيم والمآلات، وتكتسب هذه الظاهرة في سورة البقرة حضورًا لافتًا؛ إذ تتّصل بثنائيات عقدية وأخلاقية كبرى، مثل الإيمان والكفر، والهدى والضلال، والنور والظلمات، والإخلاص والرياء، ومن هنا يسعى هذا البحث إلى دراسة نموذجين مختارين من هذه الثنائيات في ضوء مقاربة تجمع بين البلاغة العربية والبلاغة الجديدة.

## منهج البحث وحدوده:

يعتمد هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي في إطار مقاربة بلاغية حجاجية؛ إذ يبدأ بوصف ظاهرة الثنائيات الضدية من حيث مفهومها اللغوي والاصطلاحي، ثم ينتقل إلى تحليل نموذجين مختارين من سورة البقرة للكشف عن وظائفهما الدلالية والتصويرية والحجاجية، ولا يتعامل البحث مع البلاغة العربية والبلاغة الجديدة بوصفهما مستويين منفصلين، بل يسعى إلى قراءتهما قراءة تكاملية؛ فالطباق والمقابلة والاستعارة والتشبيه التمثيلي والنظم لا تُدرس هنا بوصفها ظواهر جمالية فحسب، بل بوصفها آليات حجاجية تسهم في ترتيب القيم، وبناء الحضور، وتوجيه المتلقّي نحو نتيجة معينة.

ومن ثم فإن المقاربة المعتمدة في البحث تقوم على تحويل الأدوات البلاغية القديمة إلى وظائف حجاجية؛ فالمقابلة تُقرأ بوصفها استثمارًا لموضع التّضاد، والاستعارة بوصفها آلية لتجسيد المعنى وتقريبه إلى ذهن المتلقي، والتشبيه التمثيلي بوصفه حجة بالمثال، والنظم بوصفه ترتيبًا حجاجيًّا للمقدمات والنتائج، وبهذا يسعى البحث إلى الانتقال من مجرد المجاورة بين البلاغتين إلى صهرهما في قراءة واحدة ترى الجمال البلاغي قوةً إقناعية، وترى الحجاج متحققًا في بنية التصوير والنظم.

لا تهدف هذه الدراسة إلى استقراء جميع الثنائيات الضدية في سورة البقرة، فذلك يحتاج إلى بحث مستقل ذي طبيعة إحصائية وتصنيفية، وإنما تختار نموذجين دالين يمثلان نمطين مختلفين من حضور التضاد في السورة، يتمثل النموذج الأول في ثنائية النور والظلمات، وهي ثنائية لفظية صريحة تقوم على تقابل مباشر بين لفظين متضادين، وتتصل بحقول الهداية والضلال والإيمان والكفر، أما النموذج الثاني فيتمثل في ثنائية الإنفاق رياءً ومنًّا وأذى، والإنفاق ابتغاء مرضاة الله، وهي ثنائية دلالية تصويرية لا تقوم على تقابل لفظين مباشرين، بل على تقابل مشهدين ومآلين وقيمتين، وبذلك تمثل العينة المختارة مستويين من

مستويات التضاد في سورة البقرة: التضاد اللفظي الصريح، والتضاد التمثيلي الحجاجي، ومن هنا يكون اختيار النموذجين اختيارًا قصديًا يكشف تنوع آليات التضاد في السورة بين اللفظ والصورة والحجاج.

وقد سبقت هذه الدراسةَ دراساتٌ تناولت ظاهرة التضاد والطباق والثنائيات في القرآن الكريم والنقد العربي والشعر، غير أن هذه الدراسات اختلفت في موضوعها ومنهجها وحدودها التطبيقية، ويمكن عرض أبرزها على النحو الآتي:

الطباق في سورة البقرة وفوائده، للباحثة ست خير الأمة(١)، وهي دراسة اقتصرت على إحصاء مواضع الطباق في سورة البقرة مع بيان موجز لفائدتها الدلالية، وهي بعيدة عن موضوع هذا البحث ومنهجه.

الأسلوب التقابلي في سورة البقرة ودلالته للطالبة أنيسة روسي أوكتافيانا(٢)، وقد بحثت التقابل من جهة المقابلة البلاغية والتضاد الدلالي وتصنيف أنواعهما، ولكن بحثنا معنيٌّ بتتجاوز الرصد والتصنيف إلى تحليل الثنائيات الضدية في نماذج مختارة بوصفها آليات بلاغية حجاجية في ضوء البلاغة العربية والبلاغة الجديدة، في حين أن دراسة أنيسة تقتصر على تحديد المقابلات والتعليق الموجز جدًّا حولها.

التضاد والطباق في سورة البقرة، للباحثة منتازي فراديبًا(٣)، وهي دراسة تقتصر على جداول تبين الآيات التي وقع فيها التضاد والطباق في سورة البقرة دون التوسع في التحليل البلاغي أو الحجاجي.

أثر الاتساق والانسجام في النص القرآني – سورة البقرة أنموذجًا، لعبد العزيز ناصر، وفيه تناول سورة البقرة من منظور لسانيات النص، مركزًا على وسائل الاتساق والانسجام، ومن بينها الاتساق بالتضاد أو التقابل، غير أن دراسته لم تجعل التضاد مبحثًا بلاغيًا مستقلًا، بل نظرَت إليه بوصفه آلية من آليات الترابط النصّي، في حين تتجه هذه الدراسة إلى تحليل الثنائيات الضدّية في سورة البقرة تحليلًا بلاغيًا حجاجيًا يجمع بين البلاغة العربية والبلاغة الجديدة.

حجاجية الأسلوب: سورة البقرة أنموذجًا، نهاد معماش(٤)، درست حجاجية الأسلوب في سورة البقرة من خلال الانزياح والمفارقة والتكرار، فجاء اهتمامها بالأسلوب القرآني عامًّا، أما هذه الدراسة فتخصّص النظر في الثنائيات الضدية في السورة، وتكشف وظيفتها البلاغية والحجاجية في ضوء البلاغة العربية والبلاغة الجديدة.

(١) مشروع تخرج في جامعة أحمد صديق، جمبر، إندونيسيا (٢٠٢٢).

(٢) في جامعة إسلام نيجيري، مجلة جالي، العدد(١،٢).

(٣) من جامعة شريف هداية الله بأندونيسيا، (٢٠١٦).

(٤) مجلة جامعة الوصل للدراسات الإسلامية والعربية، العدد(٥٨)، ديسمبر (٢٠١٩م)، ص٥٣-٩٢.

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجًا، لمقران فصيح وعبد الناصر درغوم[١]، تناول بحثهما آلية التمثيل في سورة البقرة بوصفها وسيلة حجاجية تقوم على تقريب المعاني المجردة إلى ذهن المتلقي عن طريق الصور الحسية، ودرسا عددًا من الأمثال القرآنية، ومنها مثَلًا الإنفاق في الآيتين (٢٦٤ و٢٦٥)، وتلتقي دراسة الحجاج بالتمثيل مع هذا البحث في العناية بالبعد الحجاجي في سورة البقرة، وفي النظر إلى الظاهرة البلاغية بوصفها وسيلة إقناع لا مجرد تزيين أسلوبي، غير أنها تفترق عنه في أن موضوعها المركزي هو التمثيل، أما هذا البحث فيتخذ من الثنائيات الضدية موضوعًا له، ويدرسها في ضوء البلاغة العربية والبلاغة الجديدة بوصفها بنى تقابلية تسهم في ترتيب القيم وتوجيه المتلقي.

جدلية التضاد وبنية الموازنة: دراسة في عرض قضية: الإيمان، الكفر، لمحمد علي الفرغلي الشافعي[٢]، تتناول الطباق القرآني من خلال ثنائية الإيمان والكفر، وتبين أثر التضاد في بناء الموازنة القرآنية وترسيخ المفاهيم العقدية، وهي تشترك مع هذا البحث في أنها تحلل التضاد، ولكنها تفارقه في النماذج المختارة، وكذلك طريقة التحليل والمنهج والغاية من الدراسة.

**ثنائيات التضاد لغةً واصطلاحًا:**

**الضِّدُّ في اللغة:**

المِثْل[٣]، والنّظير والقرين والكُفْءُ والشِّبه والنِّدّ[٤]، والمخالفُ[٥]، يقال: هذا وبالجملة يأتي الضد في اللغة بمعنى المقابلة والمخالفة.

وفي الاصطلاح يختلف التعريف بحسب العلم الذي يستخدم هذا المصطلح؛ ففي الاصطلاح الفلسفي ينظر إلى الضدّين على أنهما أمران وجوديان لا يجتمعان في موضوع واحد من جهة واحدة في زمان واحد، ولكنهما قد يرتفعان معًا؛ مثل البياض والسواد؛ فهما لا يجتمعان في جسم واحد من الجهة نفسها وفي الزمن نفسه، لكنهما قد يرتفعان معًا، كأن يكون الجسم أحمر، فينتفيان بأن يكون الجسم خاليًا منهما[٦]، وأما النقيضان فلا يجتمعان ولا يرتفعان معًا في ذات الوقت مثل الوجود والعدم[٧].

(١) مجلة المدونة، ٧(٢)، ديسمبر (٢٠٢٠م)، ص٦٣٩-٦٦٠.

(٢) مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر، العدد(٢٥)، (٢٠٠٦م)، ص٣١٣-٤١٤.

(٣) لسان العرب: (ضدد)، ونقل مثل هذا القول أيضًا عن أبي عمرو.

(٤) نفسه.

(٥)نفسه نقلًا عن ابن سيده في المخصص ٣/٣٧١.

(٦) وردت فحوى هذا التعريف في مصادر مختلفة كالتعريفات للجرجاني، (حرف الضاد)، ١٣٧.

(٧) سلّم العلوم في المنطق، ١٥٩.

وفي علم الدلالة تُعرّف علاقة التضاد بأنها العلاقة بين لفظين يدل أحدهما على معنى يقابل معنى الآخر، وقد يكون التضاد متدرجًا، كما في: حار/ بارد، وقد يكون تضادًا تكامليًا أو غير متدرج، كما في: حي/ ميت، وربما يكون التّضاد عكسيًّا كما في لفظي: اليمين واليسار، وهناك أيضًا علاقة التضايف: ويسميها أهل المنطق: الإضافة، وهي نسبة بين معنيين كل منهما مرتبط بإدراك الآخر، كإدراك الأبوة والبنوة، فإن أحدهما لا يدرك إلا مع إدارك الآخر، وعلاقة التنافر، أو التخالف، وهي النسبة بين معنى ومعنى آخر من جهة إمكان اجتماعهما وإمكان ارتفاعهما عن شيء واحد في زمان واحد مثل: باع وأكل، أو طال وابيضّ[١]، والأساس في علاقات التضاد أن الذهن يجري تقابلات ذهنية، وعلى هذا ذهب سوسير إلى القول بأن (إنتاج دلالة صيغة ما يتم بوساطة عملية تقابل بينها وبين صيغ أخرى)[٢].

وفي البلاغة يأتي مصطلح الطباق Antithesis في إطار علم البديع معبرًا عن الجمع بين معنيين متقابلين، سواء أكانا اسمين أو فعلين أو حرفين، أو من نوعين مختلفين من الأنواع السابقة، وسواء أكان التقابل حقيقيًّا أم مجازيًّا، وهو ثلاثة أنواع: طباق إيجاب وطباق سلب وطباق الترديد[٣]، وهناك مصطلح المقابلة[٤] Parallel Contrast، وهو أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾[٥]، ويقابله في الدراسات الحديثة أحيانًا مفهوم التقابل أو المقابلة التركيبي.

وفي **البلاغة الجديدة** يعدّ التضادّ استراتيجية خطابية مركزية وأداة فاعلة في بناء الخطاب وتوجيهه وتحقيق أغراضه التواصلية والإقناعية، وبذلك يصبح التضادّ أكثر من كونه زينة للخطاب ليغدو بنية أساسية في تشكيل المعرفة وتنظيم الأفكار وبناء الحجاج ورسم طريقته وتوجيه المتلقي.

أما في الفقه وأصوله فيرد مفهوم الضد في سياقات تتصل بتعارض الأحكام أو دلالة الأمر على النهي عن ضده، غير أن هذا الاستعمال لا يدخل مباشرة في التحليل البلاغي الذي يعنى به هذا البحث، ولذلك يكتفى بالإشارة إليه بوصفه شاهدًا على اتساع المفهوم في الحقول المعرفية العربية[٦].

---

(١) انظر علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث اللغوي، عبد الجليل منقور، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (٢٠٠١م)، ٩٤.

(٢) من جامعة شريف هداية الله بأندونيسيا، (٢٠١٦م).

(٣) تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع، ١١٥، وطباق الترديد: أن يرد آخر الكلام المطابق على أوله، فإن لم يكن الكلام مطابقًا فهو رد الأعجاز على الصدور.

(٤) علم البديع، عبد العزيز عتيق، ٨٤.

(٥) سورة التوبة: ٨٢.

(٦) باب تعارض الأدلة في كتب أصول الفقه معروف، ومنها مثلًا كتاب الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، ٦٩/١.

ويستفيد البحث من هذه التعريفات في التمييز بين التضاد اللفظي الصريح، كما في ثنائية النور والظلمات، والتضاد الدلالي التصويري، كما في ثنائية الإنفاق رياءً والإنفاق ابتغاء مرضاة الله.

وفي الدراسات الحديثة تُعدّ **الثنائيات الضدّية** من المفاهيم المحورية التي استندت إليها النظرية البنيوية في تحليل النصوص والأنظمة الثقافية المختلفة، ويتجلّى هذا بوضوح لدى مفكرين بارزين مثل الأنثروبولوجي شتراوس (في تحليله للأساطير والقرابة) والسيميائي غريماس، ويرتبط بغريماس خاصة تطوير ما سماه: المربع السيميائي، وهو أداة تحليلية شهيرة تهدف إلى كشف البنية الدلالية العميقة للنصوص، ويقوم المربع لدى غريماس على رسم خريطة للعلاقات المنطقية بين أربعة عناصر مترابطة :مفهوم أولي، ومفهومه المضاد، ونقيض المفهوم الأول، ونقيض المفهوم المضاد، وبذلك، فهو يساعد على تحليل التحوّلات الممكنة والحركة الدينامية بين هذه المواقع الأربعة داخل السرد أو الخطاب، كاشفًا عن البنية الدلالية العميقة وشبكة العلاقات التي تحكم المعنى.

**بين مصطلحي ثنائيات التضادّ والأضداد:**

لا بدّ من التفريق بين هذين المصطلحين؛ فالأول وهو موضوع هذه الدراسة، ويقصد به في هذا البحث ما جرى نقاشه أعلاه من ضرورة وجود لفظ يضاد لفظًا آخر، سواء أكان هذا التضاد مصرحًا به أم مقدرًا في السياق وفق واحدة من علاقات التّضاد التي سيأتي تفصيلها، وأما مصطلح الأضداد الشّائع فإنّما يُراد به اللفظ الواحد الذي يستعمل وله دلالتان متضادتان تراد واحدة منهما أو ربما ترادان معًا مما يعني قراءة السياق الذي ترد فيه مرتين؛ تتوافق كلّ مرة مع إحدى الدلالتين؛ وذلك مثل كلمة: سليم، التي تحمل معنى الرجل الصحيح الخالي من المرض، كما تعني أيضًا الرجل اللديغ المريض بسبب اللدغة، وقد ورد تعريف الأضداد لدى الدكتور محمد نور الدين المنجد بعد مراجعته لأقوال اللغويين مثل قطرب والسجستاني وابن الأنباري وأبي الطيب اللغوي على أنّها: الألفاظ التي تنصرف إلى معنيين متضادين[1]، وأورد أن الأضداد اللفظية التي تتقابل فيها المعاني من دون أن يتحد فيها اللفظ لا تعدّ من الأضداد، ويستخلص من كلامه أنه يُجري تمييزًا وظيفيًّا بين المصطلحين؛ فهو يورد (التضاد) على أنه مصطلح شامل للظاهرة وللعلاقة، ويورد (الأضداد) للإشارة إلى الألفاظ المفردة التي لها معنيان متضادان، وهذه الظاهرة هي التي اهتمّ بها علماء التراث، وعلى هذا فثمّة تداخل بين دلالة المصطلحين، و(الأضداد) أي: الألفاظ تجسيد للعلاقة التي هي: (التضاد)، وفي القسم التحليلي من الكتاب اقتصر على دراسة الأضداد بالمعنى الاصطلاحي الذي تبناه اللغويون القدماء: اللفظ الواحد الذي استعمل في القرآن الكريم ليدل على معنيين

(١) التضاد في القرآن الكريم، ٢٦.

متضادين، وهذا خارج عن الدراسة التي نحن فيها التي يميزها مصطلح الثنائيات التي تشير إلى لفظين وليس إلى لفظ واحد.

**ثنائيات التضاد في القرآن الكريم:**

وردت ثنائيات التّضاد في القرآن الكريم بكثرة؛ ففي سورة البقرة وحدها يمكن رصد عدد كبير من الثنائيات ذات الطابع التضادي، سواء أكان التضاد لفظيًا صريحًا أم تقديريًا، وهذا يشير بوضوح إلى أهمية دراسة هذه الظاهرة من منطلقات مختلفة لما تحظى به من حضور لافت في القرآن الكريم، وللتعمق أكثر في فهم أبعاد هذه الظاهرة توسّل البحث إلى تحليل عميق لثنائيات مختارة من هذه السورة؛ لا سيما أن أبرز محاور التّضاد فيها هو: (الإيمان والكفر) و(الهدى والضلال) و(الحياة والموت) و(الجنّة والنار) و(الثواب والعقاب) و(النور والظلمات) و(الحق والباطل) و(السرّ والعَلَن) و(الغيب والشهادة) و(الحلال والحرام) و(الطاعة والمعصية) و(الدنيا والآخرة) و(اليسر والعسر).

وبهدف التنوع في التحليل عمد البحث إلى الحقول المعرفية التي ذكرت في مبحث تعريف المصطلحات، واستعرض ما يتوصّل إليه كلّ حقل، للوصول إلى وصف العلاقات التي بين طرفي كلّ ثنائية، وللتمثيل لا الحصر سيعرض البحث ثنائيات مختارة.

**ثنائية النور والظلمات:**

وردت ثنائية التضاد: (النور والظلمات) صراحة في [الآية: ١٧] من السورة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، و[الآية: ١٩]: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، و[الآية: ٢٥٧]: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، كما أوردت آيات أخرى إشارات إلى النور أو الظلمات تقديرًا، وهي [الآية: ٧]: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾؛ لأن الغشاوة على الأبصار تمنع صاحبها من رؤية النور، والغشاوة ظُلمة معنوية تحجب الحق ونوره عن صاحبها، وكذلك [الآية: ١٨]: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ فالعمى يمنع صاحبه أيضًا عن رؤية نور الحق، وهو أيضًا ظلمة معنوية.

وفي [الآية: ٢٠]: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾، والإشارة في هذه الآية واضحة إلى النور الذي هو حال المؤمنين والظلام الذي هو حال المنافقين، وفي [الآية: ١١٥]: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ ففي تفسير القرطبي: (المشرق: موضع الشروق،

والمغرب: موضع الغروب)[1]، وكذلك [الآية: ١٦٤]: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، والليل مظهر من مظاهر الظلمة، والنهار مظهر من مظاهر النور، و[الآية: ١٨٧]: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾، وفيها مقابلة بين الخيط الأبيض الذي يشير إلى نور الفجر وبياض النهار، والخيط الأسود الذي يشير إلى ظلام الليل وسواده، و[الآية: ٢٥٦]: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾؛ لأن الرشد هو الهداية والطريق القويم، والهداية نور، والغيّ هو الضلال والطريق المنحرف عن الصواب، والضلال ظلام، وأخيرًا [الآية: ٢٧٤]: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، وهي من الثنائيات المتصلة دلاليًا بثنائية النور والظلمة، لا من ألفاظها المباشرة، والليل ظلام يخفي الإنفاق، والنهار نور يظهر فيه الإنفاق أيضًا، وتضييقًا لدائرة البحث ستكون [الآية: ٢٥٧]: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هي مدار التحليل في هذه الثنائية.

**ثنائية الظلمات والنور من جهة علمي البديع والبيان في البلاغة القديمة:**

لا يراد بهذا التقسيم الفصل بين المستويين البلاغي والحجاجي، وإنما هو إجراء تحليلي يتيح الكشف عن كيفية تحوّل الظاهرة البلاغية، في كل مستوى من مستوياتها، إلى طاقة حجاجية تسهم في بناء المعنى وتوجيه المتلقي.

يندرج بحث التّضاد في البلاغة العربية القديمة في علم البديع تحتى مسمّى: الطباق Antithesis، وله مسميات كثيرة، واقتصر البحث هنا على الأشهر في علم البديع وهو الطباق؛ ويقصد به الجمع بين الشيء وضدّه في الكلام، وهو قسمان: طباق الإيجاب إذا كان الجمع بين ضدّين صريحين، وطباق السلب، إذا تكرّر الحكم منفيًّا، وفي الآية تقابل بين معنيي الظلمات والنور وهذا من طباق الإيجاب، وهذا التضادّ بين الظلمات والنور هو الركيزة الأساسية التي تتمحوّر حولها الآية، وهو تضاد حسّي يستدعي تضادًّا معنويًّا ضمنيًّا؛ فالآية تشتمل على مواطن أخرى من التضاد؛ (الله) و(الطاغوت)، وكذلك (الذين آمنوا) و(الذين كفروا)، و(وليّ الذين آمنوا) و(أولياء الذين كفروا)، ويشار هنا إلى إفراد (وليّ) وجمع

(١) تفسير القرطبي، ٢/٧٩.

(أولياؤهم) للدّلالة على توحيد المؤمنين، وعلى تعدّد أهل الزيغ والضّلال وتعدد طواغيتهم، قال ابن عرفة: (أفرد الوليّ هنا لأنّ الإيمانَ من لوازمه التوحيد، والكفر من لوازمه الشّرك وتعدّد الآلهة)(١).

وفي الآية من علم البديع مما يتصل بالتّضاد: المقابلة؛ وهي كما بين ذلك ابن أبي الإصبع في كتابه تحرير التحبير: (صحة المقابلات عبارة عن توخي المتكلم بين الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني في المخالف والموافق، ومتى أخلَّ بالترتيب كانت المقابلة فاسدة، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد، تكون غالبًا بجمع بين أربعة أضداد؛ ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد، خمسة في الصدر وخمسة في العجز)(٢)، والمقابلة في الآية تظهر إذ قابلت بين: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾و﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وللمقابلة وظيفة بلاغية تتلخّص في توضيح المعنى وتأكيده وترسيخه في ذهن المتلقّي، إضافة إلى تقديم بنية متوازية لطرفي المقابلة بما يشبه التناظر الشّكلي الذي يثير إعجاب القارئ، وكذلك التناظر بين فئتين متضادّتين؛ فئة المهتدين الذين تشملُهم ولاية الله تعالى، وفئة الضّالّين الذين ركنوا إلى ولاية الطاغوت، وقد أسهمت المقابلة والتّضاد الواردان في الآية في رسم الحياة والمآل لكلّ فريق أو طرف من أطراف التضاد، إضافة إلى ذكر أصحاب النار الذي يستدعي في المقابل أصحاب الجنة، وإن لم يصرح بهم في الآية؛ فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تقتضي الإشارة إلى ضدّها؛ أي إنّ المؤمنين الذين وليُّهم اللهُ تعالى هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون.

وفي هذه المقابلة يبرز للقارئ عمق دلالة الإخراج؛ إخراج المؤمنين الذي هو تطهير لهم وارتقاء بهم من الدرجة السفلى: الظلمات؛ إلى الدرجة العليا: النور، أيّ من الحيرة إلى اليقين، وإخراج الكفار الذي هو ناتج عن إغوائهم وإبعادهم بالحيلة عن الإيمان الذي هو الحقّ، وهو انحطاط بهم من الدرجة الأعلى: النور والحقّ؛ إلى الدرجة الأسفل: الظلمات والضّلال.

ومن ثم فإن المقابلة في الآية إضافة إلى أنها تحقق توازنًا لفظيًّا أو تناظرًا تركيبيًّا، كان لها توظيف حجاجي لموضع التضاد؛ لأنها تدفع المتلقي إلى المقارنة بين مسارين: مسار الولاية الإلهية الذي ينتهي إلى النور، ومسار ولاية الطاغوت الذي ينتهي إلى الظلمات، وبذلك تتحول المقابلة من محسن بديعي إلى أداة لترتيب القيم وتوجيه الاختيار.

(١) تفسير ابن عرفة، تحقيق حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، (١٩٨٦م)، ٢/٧٣٢.

(٢) عكاوي، إنعام، المعجم المفصل في علوم البلاغة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٩٩٦م)، ٦٥٦.

وإلى جانب ذلك يجد القارئ أنّ الآية من خلال هذه المقابلة التي يمكن وصفها بالمركبة اختزلت صراع الوجود بين الناس على الأرض في طريقين: الحقّ، والباطل، في أقلّ كلام وأعمق دلالة وأشملها.

ويمكن أن تفهم ثنائية النور والظلمات في ضوء تصور قريب من المربع السيميائي؛ إذ لا تقف الآية عند طرفين متقابلين هما النور والظلمات، بل تنشئ شبكة علاقات تتضمن النور، والظلمات، وما يتصل بهما من هداية وضلال، وإيمان وكفر، وولاية إلهية وولاية طاغوتية، فالنور لا يرد بوصفه ضدًّا للظلمة فقط، بل بوصفه قيمة مركزية موجبة تتصل بالهداية والولاية الإلهية، في حين تمثل الظلمات قيمة سالبة تتصل بالكفر والضلال وولاية الطاغوت، وبهذا تتحوّل الثنائية من مقابلة لفظية إلى بنية دلالية عميقة تولد شبكة من العلاقات العقدية والحجاجية داخل الآية.

ولثنائية التضاد في الآية علاقة وثيقة بعلم البيان؛ فقد لبس طرفا التضاد: (النور، الظلمات) لبوس الاستعارة التصريحية؛ وقد حوّلت هذه الاستعارة التجريد إلى محسوس، وما هو غير متناهٍ من جهة الكُنه المعنوي (الإيمان) إلى ما يمكن إدراكه بالحواسّ الخمس (النور) والشعور به، لا سيما أن النّور والظلمات لهما ارتباط وثيق بالمعرفة والإدراك والتوجّه، وإن اختيار النور ليكون المستعار في هذه الآية سببه أنّ النور شرط حتى يرى الإنسان ويهتدي إلى الصواب والأمان، وفي استعارة النور للإيمان والظلمات للكفر تتبدّى خصائص المستعار منه التي أسقطت على المستعار له مثل استحضار التّنافي المطلق؛ فالنّور ينفي الظّلمة، وكذلك الإيمان يقتضي التّخلّص من الكفر، وفي حين أنّ النور يحتاج إلى مصدر يصدر عنه؛ فإنّ الظلمة تكون بانقطاع الإنسان عن مصدر النّور واتباع سبل أخرى لا تملك النور ولا تمنحه، وهذا هو حال الضالين الذين أغلقوا أعينهم وبصائرهم عن النور، واتّبعوا الطواغيت الذين أدخلوهم في الجهالات والظلمات، ومن خصائص المستعار منه في الاستعارة الأولى التماثل والوحدة، فالنور واحد، بينما في الاستعارة الثانية تختص الظلمات في إمكان تراكمها في طبقات؛ فهناك ظلمة الليل، وظلمة السّحاب، وظلمة البحر، والتركيز على هاتين السّمتين مما يجعل التّضاد عميقًا بينهما.

ولا تقتصر وظيفة الاستعارة هنا على نقل المعنى من المجرّد إلى المحسوس، بل تتخطى ذلك إلى وظيفة حجاجية؛ فهي تجعل الهداية حاضرة في صورة النور، وتجعل الضلال حاضرًا في صورة الظلمات، وبذلك تقرّب الحكم العقدي إلى المتلقّي من خلال صورة حسية لا يحتاج في إدراك قيمتها إلى برهان مجرد؛ فالاستعارة هنا ليست زينة بيانية، وإنما هي آلية حجاجية لبناء الحضور وترسيخ المفاضلة بين المتضادين: الإيمان والكفر.

وفي الاستعارتين ما يشبه التمثيل في الإخراج الأول من الظّلمات إلى النور الذي يمثّل إنقاذ الله تعالى للمؤمن من بيئة خطرة متعدّدة إلى بيئة الأمان والسّكينة والطّمأنينة، ويقابل هذا الإخراج تمثيل للإخراج

الذي يرتدي ثوب الإغواء الشيطاني الخبيث بسحب الإنسان من أرض النور إلى بيئة الهلاك والمصير الأسود، كما أنّ في الحركة بين إخراج الله للإنسان من الظلمات إلى النّور وإخراج الطاغوت للإنسان من النور إلى الظلمات تضادًّا في الغاية والاتجاه في خلال المسار الذي عبّر عنه بالفعل المضارع (يخرج، يخرجونهم).

ويمكن أن يستنتج من البيان عن طريق الثنائية التي ذكرتها الآية مجموعة من الخصائص أوّلها: تجسيد التضاد من خلال اختيار المستعار الملائم وهو (النور والظلمات) وذلك عن طريق الانتقال من المجرّد إلى المحسوس، وثانيها: دينامية التّضاد من خلال تصوير الحركة المحسوسة في اتجاهين متعاكسين، وثالثها: تعميق التضاد من خلال استدعاء خصائص كلّ منهما وعلاقته بالآخر كالتنافي واختلاف المصدر والوحدة أو التعدّد، ورابعها تعزيز التضادّ من خلال إضفاء الشعور بقيمة الطرف الأول (النور) وانحطاط قيمة الطرف الثاني (الظلمات).

**الظلمات والنور من جهة علم المعاني في البلاغة القديمة:**

يمكن تحليل ثنائية التضادّ في الآية من منظور علم المعاني؛ وذلك من خلال مباحث هذا العلم المشتهرة ومن بينها: النظم، والتقديم والتأخير، والذّكر والحذف، والقصر، والفصل والوصل، والتعريف والتنكير، والخبر والإنشاء، وفي النظم مثلًا ينظر إلى الآية على أنها قد نظمت لتعبر عن فكرة واضحة هي الإقرار بحال المؤمنين الذين التجؤوا إلى الله الذي يستحق العبادة فأخرجهم من مسالك الضلالة إلى نور الهداية بأن أضاء لهم الطريق إليه، والإقرار بحال الكافرين الذين استجابوا لكل دعوة تغرقهم في الظلمة ومتاهاتها المختلفة متجاهلين الدعوة إلى الالتجاء إلى النور الإلهي الواضح الذي يقودهم إلى عبادة الله الواحد الحقيق بالعبادة، وقد عرف عبد القاهر الجرجاني النظم بأنه ليس سوى: (تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسببٍ عن بعض)[1]، ويكون هذا بتمثّل العلاقات بين معاني الألفاظ في الذهن، وكيف رتبت في صورة تركيبية، وهو ما عبر عنه بقوله: (واعلم انّك إذا رجعت إلى نفسك، علمت عِلْمًا لا يعترضه الشّكّ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتّى يُعَلَّق بعضها ببعض ويُبْنَى بعضها على بعض، وتُجْعَل هذه بسببٍ من تلك)[2]؛ فالنظم يعادل التركيب، وهو قائم على العلاقات التي تنشأ عن هذا الترتيب.

(١) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز ٤٦٦.

(٢) نفسه: ١٠٦.

ويكشف النظم هنا عن ترتيب حجاجي للمقدمات والنتائج؛ فالآية تبدأ بإثبات الولاية، ثم تجعل الإخراج ثمرة لهذه الولاية، ثم تنتهي بالمآل والمصير، وهذا الترتيب إضافة إلى أنه يخدم المعنى الجمالي، يقيم حجة ضمنية مؤدّاها أنّ نوع الولاية يحدد وجهة الإنسان ومصيره.

وفي الآية نجد أن الترتيب الذهني، (وهذا لتقريب المراد) قد رسم مسارًا يتدرّج من المبدأ أي الولاية إلى الصيرورة/ الإخراج وصولًا إلى المآل، وقد جاء الترتيب متنبئًا بهذا من خلال تصدير الجملة بلفظ الجلالة: (الله) ليكون مبتدأ مع حمولته العقدية، ثم الإخبار عنه بلفظ: (ولي) كي يقرّر حصانة المعية بالتضايف بين المبتدأ والخبر.

أما حال الفئة الأخرى فقد أخرج المعنى بطريقة تظهر التخبط والتشتت؛ إذ لم يأتِ النظم في الجملة الثانية مطابقًا تمامًا لنظم الجملة الأولى؛ فلم تكن بصيغة: (والطّاغوتُ وليّ الذين كفروا) بل عدل عنه قصدًا إلى تقديم (الذين كفروا) وجعلها مبتدأ، وتأخير: (الطاغوت) لتكون خبرًا لمبتدأ ثانٍ هو: (أولياؤهم) والترتيب هنا نتيجة منطقية للقيمة المعرفية التي لا تقدم الباطل ولا تصدّره ليكون موازيًا للحقّ كما في الجملة الأولى، ثم جاءت الجملة الختامية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لتكون النتيجة المنطقية الذهنية لتخبط الكافرين؛ فقد انتقلت من الحركة المتجددة من الفعل: (يخرجونهم) إلى المصير المحتوم بأنهم أصحاب النار لأنهم استحقوها بسبب فعلهم وضياعهم الذي اختاروه بانصياعهم للطاغوت.

وقد ورد في الآية ما يقوّي العلاقات بين أجزائها مجموعة من أدوات الربط مثل الضمير المتصل (هم) والضمير المنفصل: (هم) وقد كانت له وظيفة دلالية إذ أدّى إلى تجلّي أسلوب القصر في: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ فقد أفاد ديمومة العذاب للكافرين الذين اختاروا الولاية للطاغوت، واسم الإشارة: (أولئك) الذي أفاد بُعد الكافرين وإقصاءهم وتحقيرهم، وإخراجهم من مسار الهداية والنور الذي أعلن عنه في بداية الآية الكريمة.

وفيها ما يتعلق بترتيب المعاني وهندستها، ومن ذلك تقديم لفظ الجلالة (الله) في الجملة الأولى على ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفيها اختيار نوع الجملتين اللتين جرى فيهما التضاد؛ فهما اسميتان تفيدان الثبوت والاستمرار، مما يعني أن ولاية الله للمؤمن ثابتة، وولاية الطاغوت للكافر الذي خلع رداء الإيمان أيضًا ثابتة؛ إذًا هما عالَمان للولاية؛ الولاية الإلهية، وولاية الطاغوت.

وداخل كلّ جملة اسمية من الجملتين وردت جملة فعلية تفيد الحدوث والتجدّد، وهذا يعني أنّ فِعلَ الإخراج للمؤمن من الظلمات إلى النور لا يقع مرّة واحدة، بل يتجدّد كلّ مرة، وكذلك فِعلُ الإخراج

للكافرين من النور إلى الظلمات يتجدّد؛ فالغواية لا تتمّ مرة واحدة فقط، وورود الجمل الفعلية داخل الاسمية في كلا الطرفين يُضفي تناظرًا وديناميةً جاذبة.

وفي الآية التي اشتملت على التضادّ تقديم وتأخير؛ فقد قدّم لفظ الجلالة في ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لإظهار تعظيم الله تعالى، واختصاصه بهذا العمل، ونسبته إليه، وبثّ الطمأنينة في نفوس من يكونون موضوعًا لهذا العمل، وتعميق لصلتهم بالله تعالى، وفي تقديم الاسم الموصول في الطرف المقابل (والذين كفروا) إبراز صفة الكفر في هؤلاء، وكأنهم يستحقون ما وقع لهم من الضرر لأنهم استسلموا لغواية الطاغوت وخديعته لهم، مما ينتج عنه القلق، وفي المحصّلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وفي الآية تعريف وتنكير؛ فـ(النور) معرّف على أنه معهود ومعلوم، وهو مفرد كما سلف، مما يزيده وضوحًا وتحديدًا، في حين يأتي تعريف (الظلمات) لأنها معهودة معلومة، ولكن دخول (أل) التعريف على الجمع جعلها تحدد الفئة أو المجموعة مجتمعة، ولا تحدّد أفرادها أو تُعدّد أنواعها، بل تشير إلى إطارها العام، إنه تحديد للصنف وإشارة إلى التعدّد والتنوّع داخله.

في المحصلة يتمثّل القارئ الآية الكريمة وطريقتها في عرض صورة الفريقين وارتباط المؤمنين بولايتهم لله تعالى وارتباط الكافرين بولايتهم لآلهتهم المزعومة، ويستنتج أن الأمر طريقان، طريق يوصل صاحبه إلى السلامة وهو طريق المؤمنين، وطريق يهوي بصاحبه إلى العقوبة المستحقة وهي أن يكون من أصحاب النار وأنه يخلد فيها، وهذا التقسيم يشبه عند الدارسين المحدثين ما يسمى فصل المفاهيم، والقرآن لا يرفض فكرة الولاء، لأنها قيمة إنسانية وفطرية، ولكنه من خلال الآية يفصلها إلى مستوين متناقضين، وذلك بهدف حلّ هذا التناقض في نفوس المؤمنين، لأن الولاء لا يمكن أن يقع على جهتين متضادتين تمامًا، ولتوضيح ذلك يمكن القول إن الولاء للطاغوت هو المظهر السطحي المتوهّم، وهو آنيّ زائل وخادع، وهو مرتبط بحدود الحياة الدنيا، وهو يخدع الكافرين فيرون أن الطاغوت مصدر قوة وحماية وعز وجاه، وقد أبهم المراد بالطاغوت ليشمل كل ما يمكن أن يتخذ وليًّا من دون الله تعالى،؛ فالصنم طاغوت، والمال طاغوت، والحاكم المستبد طاغوت، والقرآن إذ يطلق الحكم بأنّ الله وليّ الذين آمنوا، يبين الحال التي تردّى إليها الذين كفروا، وقد بين في آيات أخرى أنهم قد خدعوا أنفسهم؛ فطاغوتهم ضعيف وليس قويًّا كما توهّموا؛ وذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[1]، وأما قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ

(١) العنكبوت: ٤١.

ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فهو القاعدة والمعيار، وهو البديل الحقيقي الذي يقدّمه القرآن الكريم للمظهر السّطحي الخادع في الولاية للطواغيت، وفي هذه الآية تظهر ثمرة الولاية لله بالهداية من الظلمات إلى النور، وفي آيات أخرى يبين القرآن الكريم أن اختيار هذه الولاية هو الاختيار الصحيح، وينتج عنه النجاح المطلق الموصل إلى الغلبة الحقيقية والقوة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾(١)، والقرآن الكريم بهذا الفصل المفاهيمي يزعزع الطمأنينة السطحية للكفار باختيارهم للطواغيت، ويربطها بالخروج من النور والدخول في الظلمات والخلود في النار.

وفي سياق الفصل بين المفاهيم يبرز ما يسمّى الربط حيث يجمع صاحب الكلام عناصر كانت متفرقة في ذهن الجمهور، وينشئ تلاحمًا وعلاقة تلازمية بين المفصولَين، وقد تكون هذه العلاقة سببية أو منطقية أو قيمية، ومن شأن ذلك أن يقنع السامع بأن قبول عنصر من المفصولين يفرض قبول العنصر الآخر، وقد تجلى الربط الحجاجي في الآية من خلال التلازم شبه المنطقي بين الإيمان والولاية لله، وآلية الربط أن الإيمان يبدو عملا تعبديًّا فرديًّا، ولكن الآية الكريمة ربطته مباشرة بصيغة جازمة وحاسمة بأنه ولاية لله، ونجم عن هذا الربط رفع قيمة هذا الإيمان من كونه اختيارًا شخصيًّا إلى مرتبة الاندماج في صون الله تعالى وحمايته وهدايته المستمرة والمطلقة.

ومن آليات الربط أيضًا ربط السبب بالنتيجة، فالإيمان وولاية الله سبب للوصول إلى النتيجة وهي: (يخرجهم من الظلمات إلى النور)، كما أن أولياءهم الطاغوت يرتبط بالنتيجة التي هي: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وهذا الربط الحجاجي يجعل السامع يدرك أن الولاية أمر مستمر وفعل تغيير في واقع الوجود وفي المصير، وهو يسلم مهما كان موقفه من الإيمان بالله بصواب النور وخطأ الظلمات.

وفي الآية ربط عن طريق التناظر والتقابل؛ فمن جهةٍ اللهُ ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي المقابل الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ولهذا التقابل والتناظر أثر في ذهن السامع حيث يعقد المقارنة الحاسمة ويضعه أمام أحد خيارين وحزمتين واضحتي المعالم، حزمة الربط الإيجابي الأولى: المؤمنون، ولاية الله، الخروج من الظلمات إلى النور، وحزمة الربط السلبي الثانية: الكافرون، ولاية الطاغوت، الخروج من النور إلى الظلمات.

وثمة نوع ثالث من الربط في الآية وهو ربط القيم بالرموز الكونية؛ فالنور رمز الهداية وبه ربطت الآية الإيمان، والظلمات رمز الضلال، وبه ربطت الآية الكفر، وبناء على ذلك فإن مشاعر القارئ أو السامع

(١) المائدة: ٥٦.

تنجذب فطريًّا إلى النور الذي يرمز إلى الإيمان والهداية والأمان والوضوح، وتنفّر من الظلمات التي ترمز إلى الضلالة والكفر والتيه والضياع والخوف.

بعد هذا التحليل الذي أجري في ضوء البلاغة العربية بعلومها الثلاثة: البيان والبديع والمعاني، والحجاج من البلاغة الجديدة، وخاصة في ضوء نظرية بيرلمان، ظهر أن التضاد اللفظي استخدم لترسيخ العقيدة، خاصة أن الثنائية: النور/ الظلمات استخدمت مقترنة بالفعلين: يخرجهم/ يخرجونهم وتحولت الاستعارة من حالة سكونية إلى حالة من التدافع الحركي المستمر، مما يسهم في تجلي الصراع بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، وجعله صراعا مستمرًّا وقانونا كونيًّا متجددًا في نفوس البشر.

وبعد اتضاح الصورة في الثنائيات الصّريحة، يمكننا أن نحلل ثنائية من نوع آخر هي ثنائية تتعلق بفعل واحد سلوكي بين طائفتين من البشر، طائفة تتميز بالإخلاص في الأعمال، وطائفة غلبتها شهوة الظهور والرياء، إنها ثنائية الإنفاق بالمنّ والأذى، والإنفاق ابتغاء رضا الله، وفي تحليل الآيتين يعتمد البحث على الرؤية التكاملية؛ ولهذا سينظر إلى التشبيه التمثيلي والمقابلة والتصوير بوصفها آليات حجاجية تجعل المعنى الأخلاقي الغيبي حاضرًا في صورة محسوسة مقنعة.

**ثنائية الإنفاق منًّا وأذى، والإنفاق ابتغاء مرضاة الله:**

في سورة البقرة وردت الآيتان (٢٦٤ و٢٦٥) وفيهما مثال آخر من أمثلة التضاد الدلالي، ونص الآيتين هو:

[الآيـــة: ٢٦٤]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾،[الآيـــة: ٢٦٥]: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تبدو طريقة التّضاد هنا مختلفة عن ثنائية النور والظلمات؛ إذ كانت الطريقة هناك أن ترد الألفاظ المتضادة صريحة متجاورة، أي كان التضاد في الجوهر والماهية، بينما وردت هنا في سياق النيات ومآلات الأفعال، وهو سياق دلالي كبير يتمثل في فعل واحد هو الإنفاق، ثم ينقسم الدافع إليه إلى مسارين متضادين في الطريقة والعاقبة؛ فالمسار الأول هو مسار الإنفاق رياء ومنًّا وأذى، ويضادّه المسار الثاني الذي هو الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، وسيتناول البحث هذه الثنائية في ضوء المقاربة البلاغية الحجاجية نفسها، بحيث تُقرأ الأدوات البيانية والبديعية والمعنوية بوصفها آليات تسهم في بناء المعنى وتوجيه المتلقي.

**ثنائية الإنفاق في ضوء البلاغة العربية وعلومها الثلاثة:**

اعتمدت الآية الأولى على التشبيه التمثيلي؛ فقد شبهت الذي ينفق ماله رياء الناس وهو لا يؤمن بالله ولا اليوم الآخر بأرض صخرية ملساء مُغطّاة بقشرة من التراب، كذلك اعتمدت الآية الثانية على التشبيه التمثيلي؛ فقد شبهت حال الذي ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وثوابه بحال جنة بربوة أصابها المطر فآتت أكلها ضعفين، وفي التشبيهين تقاطع من حيث إن المشبه به في الصورتين مشهد أرضي نباتي، وتتكوّن الصورة التمثيلية في الموضعين من اجتماع المحلّ، والمطر، والنتيجة المترتبة عليه، وفي التشبيهين تقاطع من حيث إن المشبه به في الصورتين مشهد أرضي نباتي، تتكوّن صورته من ثلاثة عناصر: المحل، والمطر، والنتيجة المترتبة عليه؛ ففي الصورة الأولى لا محصول ولا حصاد، لأن الوابل يكشف صلادة الصفوان، وفي الصورة الثانية محصول وافر يبلغ الضعفين، أو بركة قائمة حتى مع الطلّ القليل.

فالمقابلة هنا لا تقع بين لفظين مفردين، وإنما بين صورتين تمثيليتين كاملتين؛ فقد انتقل التضاد إلى مستوى التكوين التصويري: سطح صلب مغطّى بتراب عارض في مقابل أرض حية مثمرة، ومطر يكشف العقم في مقابل مطر يستخرج الخصب، وبهذا تجعل صورة الصفوان والجنة المعنى الأخلاقي الغيبي، وهو بطلان العمل أو نماؤه، حاضرًا في ذهن المتلقّي حضورًا حسيًّا مقنعًا.

لم تذكر الآية (كصفوان) مجردًا، بل قالت: ﴿كصفوانٍ عليْه تُرابٌ﴾، وفي هذا القيد دلالة تصويرية دقيقة؛ لأن التراب يوهم الناظر بوجود قابلية للإنبات، كما توهم الصدقة الظاهرة بوجود الخير، لكن الوابل حين ينزل يزيل هذا الغطاء العارض، فينكشف الصلد الكامن تحته، وبذلك يكون المطر اختبارًا كاشفًا للحقيقة، لا سببًا في إفسادها؛ لأن الفساد كان موجودًا من قبل، وإنما كشفه الوابل، يضاف إلى هذا أن المرائي بصدقته ينشئ خدعة من حيث إنه يُظهر التصدق فعلًا نبيلًا وهو يضمر أن دفعه للمال إنما هو طلبًا للمباهاة ورسم الصورة الحسنة له في أذهان الناس، ولكن المكر أحاق به هو، كمثل التراب الذي يبدو صالحا للزراعة، يضع الإنسان البذور فيه وينتظر المطر لكي ينبت الزرع، ولكن المطر يجرف التراب والبذر، ويفاجأ المرائي بأن عمله قد صار هباء لا طائل له.

في المقابل، لم يأتِ وصف الجنة بالربوة وصفًا عارضًا، بل جاء جزءًا من بنية المشهد وشرطًا من شروط خصوبته، وهذا يوافق الفرق بين الرّياء والإخلاص؛ فالرّياء طلاء عارض على عمل لا روح فيه، أما الإخلاص فتموضع داخلي ثابت يمنح العمل قابليته للنماء.

وفي علم البديع نلمح في الآيتين مقابلة تصويرية مركبة، حيث تجري المقابلات بين جهات متتالية: ابتغاء مرضاة الله تقابل: ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، وكذلك بين: ﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

تُرَابٌ﴾ يقابلها: (جنة بربوة)، وكذلك بين: (فتركه صلدًا و: لا يقدرون على شيء) و(فآتت أكلها ضعفين).

**وفي النظر العميق إلى المقابلات الضمنية في الآيتين يمكن استنباط ما يأتي:**

مقابلة بين الإبطال والعدم من جهة والتثبيت والبقاء من جهة أخرى، فقد جرت المقابلة بين قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم﴾، والإبطال هو الإلغاء والإفناء، والمؤدى منه فقدان القيمة والوزن، وقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ والتثبيت يعني: التمكين والبقاء والإرساء، وهذا يعني وقد يوحي ذلك بأن عمل المرائي يفتقر إلى الثبات الداخلي، بخلاف عمل المخلص الذي يرتبط بالتثبيت والطمأنينة، فالعمل الصالح الذي هو الإنفاق يؤدي إلى رسوخ النفس والدوام على مثل هذه الأعمال.

المقابلة بين: الأذى المنفّر وما يحمله من إهانة للفقير، وابتغاء مرضاة الله وما يقتضيه ذلك من الرحمة والمحبة والإحسان؛ ففي الأول يبدو التعالي على الناس، وفي الثاني يبدو الرضا، والأول سعي لرضا النفس، بينما الثاني سعي لرضا الخالق سبحانه وتعالى.

المقابلة بين المطر الكاشف والمطر المنمّي؛ فالوابل في صورة الصّفوان يكشف العقم والصلادة ولا ينتج خصبًا، أما الوابل والطلّ في صورة الجنة فيستخرجان الخصب، ويدلّان على قابلية العمل المخلص للنماء. وبهذا يصبح المطر نفسه أداة اختبار تكشف الفرق بين عمل ظاهر لا أصل له، وعمل راسخ قابل للبركة والإثمار.

المقابلة بين صيغتي الإفراد والجمع، فالأول جاء بصيغة المفرد: (كالذي ينفق ماله رئاء الناس، مثله، فتركه)، والثاني جاء بصيغة الجمع: (الذين ينفقون أموالهم، أنفسهم)، وربما جاء التعبير بالمفرد لتشخيص النموذج وتقريبه إلى الذهن، ثم جاء الجمع في قوله: (لَا يَقْدِرُونَ) للدلالة على أن هذا النموذج يمثل جماعة ذات مصير واحد، بينما السمة المشتهرة في مجتمع المؤمنين هي الإخلاص في أداء الأعمال الخالصة ومنها الإنفاق.

المقابلة بين الإنذار في حال المرائي والطمأنة في حال المنفق بإخلاص؛ فقد ختم الأول بالرفض الإلهي والطرد من الهداية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وختم الثاني بما يشعر المؤمنين بالرعاية الإلهية المصاحبة للأعمال التي يؤدونها، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

المقابلة بين مكان الصفوان ومكان الجنة؛ فالصفوان مكانه مجهول، والذي ذكرته الآية أنه صَفْوان عليْهِ ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلدًا، وقد انطلقت الآية من غرض الكلام الذي هو بيان أنه لن يفيد ولن يثمر، فوصفت أنه صخر أملس، وعليه تراب سرعان ما سيزول حين هطول المطر عليه، أما الجنة فلفظها نفسه

يوحي بالستر والخصب وكثرة الشجر، فضلًا عن وصفها بأنها بربوة، مما يعمق دلالة الرسوخ والنماء، والجنة هي: الحَدِيقةُ ذَاتُ الشَّجَرِ وَالنَّخْلِ، وَجَمْعُهَا جِنان، وَفِيهَا تَخْصِيصٌ، وَيُقَالُ جنة لِلنَّخْلِ وَغَيْرِهَا، وَقَالَ أَبو عَلِيٍّ فِي التَّذْكِرَةِ: لَا تَكُونُ الجَنَّة فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا وَفِيهَا نخلٌ وعنبٌ(١).

المقابلة بين ارتباط عمل المنفق رِياء بالناس، وارتباط عمل المنفق بإخلاص بالله سبحانه وتعالى، وفي الأول ينتهي العمل بحدود وجود الناس، أما في الثاني فالعمل الصالح المخلص يتجاوز حدود نظر الناس إلى أفق الثواب الإلهي الباقي؛ فالله يضاعف الأجر ويجزي صاحبه الرضا الذي لا حدود له.

ويمكن استنباط المقابلة الآتية، وهي أن المرائي يعيش للآخرين، وينفق ماله ليصنع لنفسه صورة ذهنية حسنة في أذهان الناس، في حين أن الإخلاص لله في الإنفاق لدى الفريق الثاني يثبت النفس ويعمق جذورها ويرممها من الداخل، لأنه يعيش مؤمنًا بالخالق ومؤملًا مثوبته ورضاه.

وثمة مقابلة بين الفقر في المشبه به لدى الحديث عن المرائي، والغنى في المشبه به لدى الحديث عن المؤمن؛ فالصفوان الذي عليه تراب سرعان ما يتعرى حين تعرّضه للوابل الغزير، في حين أن الجنة التي على ربوة فيها من مظاهر الخصب ما يستثير البصر والذهن، لأنها حين تتعرض للوابل وصفت بأنها: (آتت أكلها ضعفين)، وهذا يعني أن الذهن يتمثل دورة الإنبات والإزهار والإثمار مرتين، وهو زمن متطاول، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي إنها تعطي مع القليل المبارك من المطر ما يكفي الزارعين؛ فالمقابلة هنا بين فقر سريع الانكشاف، وغنى ثابت مستمر الإثمار، بين سطحية سريعة الزوال والانمحاء وخصوبة عميقة ممتدة الأثر.

وثمة مقابلة بين حركة الفعلين في القسمين؛ ففي جانب المرائي بإنفاق ماله استخدم الفعل: (تركه) وفي القسم الثاني في جانب المنفق لماله ابتغاء مرضاة الله استخدم الفعل: (آتت)؛ أما الفعل (تَرَكَهُ) فيوحي بالخذلان والانكشاف وانتهاء الحركة إلى العدم، وأما الفعل (آتَتْ) فيوحي بالعطاء والاستجابة والإثمار، فالمطر نفسه يفضي في الصورة الأولى إلى الترك والسلب، ويفضي في الصورة الثانية إلى الإيتاء والمنح.

وأما فنون البلاغة الأخرى فيظهر في الآيتين التفات كان له أثر واضح في التضاد الظاهر بين صورتي الفريقين، من ينفق ماله رياء وسمعة، ومن ينفقه ابتغاء مرضاة الله، فبعد النداء والنهي الموجهين إلى المؤمنين، ينتقل النص في تصوير المرائي إلى ضمير من أوله إلى آخره: (ينفق، ماله، فمثله، تركه، لا يقدرون، الكافرين)، وهذا يشير إلى بعد أصحاب الرياء عن الله وانشغالهم بالناس، وأما الفريق الآخر وهم المخلصون في أعمالهم ومنها الإنفاق، فقد كان النص يسير في ضمير الغائب (ينفقون، أموالهم، أنفسهم) وبعد ذلك

(١) لسان العرب: (جنن).

يجري الالتفات إلى ضمير الخطاب المباشر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وكأنه يشير إلى قربهم من الله وعنايته بهم، فهو يرى ما صنعوا.

وثمة انتقال بين المفرد المرائي بإنفاقه ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ﴾ وهو لا يُقصَد به مفرد بعينه، بل نموذج متكرر، ثم جاء الجمع ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ ليكشف أن هذا النموذج الفردي ينتمي إلى جماعة كاملة تشترك في المصير نفسه، ويلمح من هذا التقليل من شأن هذا المرائي وضياع وزنه وسط جموع العاجزين، وهو وإن ظن نفسه فردًا قويًّا ينتمي إلى جمع ضائع لا يقدر على شيء مما ظن أنه قادر عليه، ولا يحظى بالهداية من الله العظيم.

ومما يعزز البنية التصويرية في الآيتين المتقابلتين مراعاة النظير، وهي الجمع بين الأمور المتناسبة لا على جهة التضاد المباشر، وفي الآيتين بيئتان وحالان؛ بيئة الجدب والموت، وبيئة الخصوبة والحياة.

وفي الآيتين أيضًا جاء التنكير في سياق النفي في قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ ليفيد العموم، أي لم يتحصلوا من عملهم على شيء مهما بدا ذلك الشيء كبيرًا في ظاهره، وكما اختفى التراب النافع تمامًا وترك الصخر صلدًا أملس عاريًا كذلك لم يبق للمرائي شيء من كسبه.

وفي سياق التضاد بين الصورتين والتشبيهين يمكن الحديث عن فنون علم المعاني كالحديث عن النداء في أول الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والحديث عن أسلوب النهي: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾، والحديث عن التعليل بالتشبيه التمثيلي، والحديث عن خاتمتي الآيتين اللتين ورد فيهما التضاد.

وأما البلاغة الجديدة، فتنطلق قراءة الآيتين في ضوء بيرلمان من أن الحجاج لا يقوم على البرهان الصوري وحده، بل على استمالة عقل المتلقي ووجدانه من خلال مقدمات يسلّم بها الجمهور، وقيم مشتركة، وصور تجعل المعنى حاضرًا في الذهن، ومن هنا فإن التشبيه التمثيلي في الآيتين لا يؤدّي وظيفة تصويرية فحسب، بل يعمل بوصفه حجة بالمثال؛ إذ ينقل قضية أخلاقية غيبية، هي قبول العمل أو بطلانه، إلى مشهد حسي مألوف هو مشهد الأرض والمطر والزرع.

فيمكن تناول الآيتين المتقابلتين من خلال البعد الحجاجي، وقد اعتمدت الآيتان التمثيل بوصفه بنية حجاجية تنقل الحكم الأخلاقي وهو بطلان الصدقة المصاحبة للمن والأذى، وفي المقابل قبول الصدقة المقترنة بالإخلاص، تنقل الحكم إلى مشهد حسي مألوف للمتلقي، وقد اختارت الآيتان مشهد الزراعة للشبه بين دفع الصدقة إلى من يحتاج إليها، وانتظار صاحبها للنتيجة، وبين الدفع بالبذور إلى داخل التراب وانتظار الموسم للحصاد وجني المحصول، وقد نقلت الآية إمكان الجدل حول نية المعطي للمال إلى التسليم ببطلان نيته الصالحة في حال الرياء والمن والأذى من خلال نقل دائرة الاهتمام إلى مشهد هلاك

الزرع وجعله تمثيلًا لا يجادل فيه أحد، فالمتلقي قد يجادل في النيات، لأنها خفية، ولكنه لا يجادل في صفوانٍ أصابه وابل فبدا صلدًا، ولا في جنةٍ أصابها المطر فآتت أكلها، وبذلك تتحول الصورة إلى دليل محسوس على معنى غيبي أخلاقي.

والحجة في الآيتين تتدرج على سلَّم واضح؛ لأن الإنفاق في حد ذاته فعل حسن محمود، غير أن قيمته تأتي من بواعثه ونتيجته، فإذا كان مقترنًا بالأذى والمن والرياء تحول إلى عمل لا قيمة له، وإذا اقترن بابتغاء مرضاة الله صار من الأعمال التي تتضاعف ثمراتها، وهذا السلم ينقل المخاطب حجاجيًّا من معيار الكم إلى معيار الكيف؛ من المال المنفق، إلى النية والدافع والأثر المتحصل.

والجمهور المقصود في الآيتين هو جمهور المؤمنين، كما يدلّ النداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ولذلك ينطلق الحجاج من مقدّمات إيمانية مشتركة بين الخطاب والمتلقي، مثل الإيمان بالله واليوم الآخر، وقيمة الصدقة، وقبح الرياء والمنّ والأذى، وكون الله هو المرجع الأعلى في قبول العمل، ومن هنا لا يفرض النص مقدماته على المخاطب من خارج منظومته، بل يستثمر ما يؤمن به أصلًا ليعيد ترتيب نظرته إلى العمل والنية والمآل، فالإيمان هو منطلق الحجة، واليوم الآخر ومرضاة الله وبصره بالأعمال قيمٌ مركزية تجعل المنّ والأذى والرياء أفعالًا مناقضة لمقتضى الصدقة.

ويمكن النظر إلى الحجاج في الآيتين في ضوء ما قدمه بيرلمان؛ فقد ذكر أن من أهم طرائق الحجاج الحجاج بالمثال، ويؤتى به لتيسير فهم قاعدة ماوذلك عن طريق (حالة تطبيق لا طعن فيها)[1]، والآيتان لا تتوقفان عند عرض أحكام أخلاقية مباشرة، بل تبنيان نهجًا من الخطاب الإقناعي الذي يوصف بأنه متدرّج في مخاطبة عقل المتلقي مع وجدانه، ثم إيراد المثل المسلَّم به، وهذا ينقله من التسليم الظاهري بقيمة الإنفاق ومكانته لدى الإنسان والمجتمع، إلى إدراك معيار أعمق منه وهو معيار الباعث والنية والمصير؛ فالإنفاق لا يكون ذا قيمة إلا إذا اقترن بما يجعله مقبولًا ومحمودًا وهو الباعث والنية، وقد عبرت الآية عن ذلك بابتغاء مرضاة الله، وقد يتحوّل العمل إلى باطل لا يبقى لصاحبه منه شيء؛ لا بل ينقلب وبالًا عليه لأنه يقربه إلى أن يوسم بسمة أهل النفاق الذين يعملون الأعمال ويقصدون بها وجوه الناس وليس وجه الله، وبالمجمل فإن الآيتين تنقلان المخاطب من معيار الفعل الظاهر إلى معيار القصد الباطن، ومن معيار الصورة الاجتماعية للعمل وقيمته الظاهرة إلى معيار قيمته عند الله سبحانه وتعالى.

والمقدمات المسلّم بها لدى المخاطبين التي ينطلق منها الحجاج في الآيتين في ضوء نظرية بيرلمان هي:

(١) بيرلمان، شاييم، المصنف في الحجاج، ٥٣٣، وقد ناقش الحجاج بالمثل في مبحث طويل، وميرز بين الحجاج بالشاهد، والحجاج بالمثل.

- الإيمان يقتضي الحرص على إخلاص العمل لله تعالى.
- الصّدقة عمل يراد به التقرب إلى الله تعالى.
- الأذى والمنّ يتناقضان مع القصد من الصَّدقة.
- الرّياء يفسد العمل.
- الله هو الذي يقبل العمل أو يردّه.

الجزاء الذي يناله الإنسان في الآخرة لا يمكن أن يناله الإنسان بظاهر العمل وإنما بصحة النية والقصد والنتيجة.

وفي هذا السياق أيضًا يمكن الحديث عن الحضور الحجاجي عن طريق تجسيد المعاني المجردة من خلال صورتي الفريقين المتضادين (المرائي والمبتغي وجه الله) ويقصد بالحضور أن تكون المعاني حاضرة في ذهن المخاطب بقوة وتأثير، وقد تحقق ذلك في الآيتين من خلال التشبيهين التمثيليين، وبهذا يؤدي التمثيل وظيفة حجاجية وليست جمالية فقط؛ لأنه يجعل المتلقي يرى نتيجة الفعل قبل أن يُطلب منه التسليم بالحكم المطلوب.

وبالنظر إلى السلّم الحجاجي في الآيتين يظهر بوضوح السلّم الذي ينقل المتلقي من القيمة الأدنى إلى القيمة الأعلى، والقيمة الأدنى هنا هي بذل المال، والإنسان الذي يُظهر أنه يبذل المال يراه أفراد المجتمع صاحب فضل وإحسان وكرم، ولكن الآيتين اللتين تقدمان صورتين متضادتين تبيّنان أن هناك قيمة أعلى من بذل المال وهي قيمة الإخلاص في العمل لله تعالى، وعلى هذا تترتب القيم على النحو الآتي:

- المال في ذاته ليس معيار التفاضل.
- الإنفاق في ظاهره ليس كافيًا للقبول.
- النية هي التي تمنح العمل قيمته.
- الإخلاص يثبت العمل وينميه.
- الرياء والمنّ والأذى يبطلان العمل مهما عظم ظاهره.
- معيار الله أعلى من معيار الناس.

فالآيتان تعيدان توجيه العمل من أفق الناس إلى أفق الله، ومن طلب السمعة إلى طلب الرضا، ومن قيمة اجتماعية زائلة إلى قيمة إيمانية باقية، وعلى هذا الأساس، فإنّ التضاد في الآيتين ليس بين البخل والإنفاق، كما قد يُتوقّع، بل بين إنفاقين: إنفاق ساقط القيمة، وإنفاق عالي القيمة، وهذا أدقّ من الناحية الحجاجية؛ لأنه يخاطب من يمارس الفعل الصّالح، لكنه قد يفرّغه من قيمته بسوء القصد أو سوء النتيجة.

وفي الآيتين حجاج يتأتى من النظر إلى المآل؛ لأن الآيتين لا تكتفيان بعرض الفعل في مبدئه، بل تعرضان عاقبته ونتيجته ومآله، وهذا يصرف نظر المتلقي حين يرى عاقبة العمل إلى التفكير في أصله، وتحرير نيته إذا أراد الإنفاق، وبذلك يتأسّس الإقناع على رؤية النهاية لا الاكتفاء بالبداية، وتشتغل الآيتان كذلك بآليتي الفصل والربط؛ فهما تفصلان بين صورتين قد تبدوان في الظاهر متشابهتين، هما صورة الإنفاق، لكنهما تربطان كل صورة بباعثها ومآلها، فإنفاق المرائي يرتبط بالمنّ والأذى والعدم، وإنفاق المخلص يرتبط بابتغاء مرضاة الله والتثبيت والنماء، وبهذا لا يكون للفعل الواحد، وهو الإنفاق، قيمة مطلقة في ذاته، وإنما يكتسب قيمته من شبكة العلاقات التي يتفاعل من خلالها: النية، والغاية، والأثر، والمصير.

ويبرز من خلال الآيتين تضاد ومقابلة بين رؤية الناس من جهة وبصر الله سبحانه وتعالى من جهة أخرى، والعمل الذي يُقدم عليه الإنسان (وهو بذل المال هنا) له مرجعيتان؛ مرجعية الناس، ومرجعية تتعلّق بالخالق البصير، وهذه المقابلة ذات قيمة حجاجية كبيرة؛ لأنها تعيد تحديد الجمهور الحقيقي للعمل.

فالمرائي يتوجّه إلى جمهور محدود متقلّب، هو الناس، بينما المخلص بالإنفاق يتوجّه إلى الله تعالى، وهو المرجع الأعلى والأبقى، وهنا يمكن القول إن الآيتين تنقلان المخاطب من طلب تصديق الجمهور الاجتماعي إلى الاحتكام إلى معيار إيماني أعلى، أو من معيار النظرة الاجتماعية إلى معيار العلم الإلهي.

وثمة نوع من الحجاج تنطوي عليه الآيتان يتمثل في إظهار التنافر بين أصل الفعل وما أظهر فيه؛ لأن الصدقة في الأصل ينظر إليها على أنها تمثّل الرحمة والإحسان، ولكنها عندما لابسها المنّ والأذى تحولت إلى إهانة وإيلام، وهذا يؤدّي إلى بروز التنافر بين الفعل والقصد منه؛ ذلك أن الصدقة تفترض جبر الخاطر، والمنّ يُحدِث الكسر، والصّدقة تفترض الرحمة، والأذى يؤدّي إلى الألم، والصدقة تفترض الإخلاص، والرياء يجعلها استعراضًا، والصدقة تُوجب التوجّه بها إلى الله تعالى، والرياء يوجّهها إلى طلب رضا الناس، وكلّ هذا يؤدّي إلى نزع القيمة عن الفعل وإبطال أثره: (لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى)، وهذا يعني أنّ الحجاج في الآيتين موجّه إلى حماية قيمة الإنفاق والصدقة من العيوب التي تذهب بثوابهما، وتحولهما إلى لوم وذنب.

**الخاتمة:**

أكد البحث أن ثنائيات التضاد في القرآن ظاهرة تتجاوز التزيين أو المحسنات البديعية إلى أن تكون ذات بنية متجذرة تتخذ من التصوير لبوسًا لها، وهي ذات بعد حجاجي تبني المعنى وتوجّهه إلى المتلقّي بدقّة، كما بيّن البحث البعد التصويري للثنائيات؛ ففي النموذج التمثيلي الخاص بالإنفاق ظهر جليًّا كيف

أن البنية التصويرية المشهدية كان لها أثر واضح في اكتمال أدوات الحجاج في الآيتين، كما كشف البحث كذلك كيف أن البلاغة العربية التقليدية قد قدّمت أدوات مهمّة لفهم الثنائيات ولا سيما من خلال الطباق والمقابلة والاستعارة والتشبيه التمثيلي ومراعاة النظير ودلالة التقديم والتأخير، وأكد البحث أن البلاغة الجديدة وخاصة ما يتعلق بنظرية الحجاج لا سيما عند بيرلمان تفتح مجالًا واسعًا لقراءة ظاهرة التضاد وغيرها من الظواهر اللغوية والبلاغية.

وقد بين البحث أن التضادّ الحسّي بين النور والظلمة يتحول إلى تضاد معنوي وعقدي بين الهداية والضلال، والإيمان والكفر، والولاية الإلهية وولاية الطاغوت، وأظهر كذلك أن التقابل في الآية الخاصة بالنور والظلمات لا يقوم على الألفاظ وحدها، بل على شبكة من العلاقات: الله/ الطاغوت، المؤمنون/ الكافرون، النور/ الظلمات، الهداية/ الضلال، النجاة والمصير إلى الجنة ضمنًا/ المصير إلى النار تصريحًا، وأما في الآيتين (٢٦٤ و٢٦٥) فقد بين البحث أن ثنائية التضادّ تقوم على مقابلة تصويرية كاملة بين مشهد الصخرة الملساء ومشهد الجنة التي بربوة، وهذا جعل التضاد تمثيليًّا مركَّبا، ووضح البحث أن التضاد في هاتين الآيتين لا يقتصر على الرياء في الإنفاق والإخلاص فيه، وإنما يتسع لثنائيات ضدية ضمنية متعددة يمكن استنباطها بالتفكير والتأمل، ومنها: العقم والخصوبة، والزوال والثبات، والإبطال والتثبيت، ونظر الناس وبصر الله سبحانه وتعالى.

وتوصل البحث إلى اكتشاف الطريقة التي يسهم فيها التضادّ القرآني في بناء موقف المتلقّي، وكيف يدفعه من خلال التدرج في بيان المعنى والانتقال به من خلال التصوير إلى المفاضلة القيمية واختيار المسلك والمسار الموافق للهداية والصواب.

أظهر البحث من خلال التطبيق كيف يمكن الجمع بين البلاغة العربية الأصيلة بعلومها الثلاثة وبين البلاغة الجديدة، وكيف يمكن لهذا الجمع بينهما أن يقدم قراءة أعمق للقرآن الكريم، خاصة أن البلاغة العربية التقليدية تكشف جماليات التصوير والنظم، بينما تركز البلاغة الجديدة على الوظائف الحجاجية والتأثيرية لهذه الجماليات.

وأخيرًا يوصي البحث بتوسيع دراسة ثنائيات التضاد في سور أخرى من القرآن، من خلال البلاغتين العربية التقليدية والجديدة، وهذا من شأنه أن يوسّع فهم بنية النص القرآني.

## المصادر والمراجع:


القرآن الكريم.

ابن أبي الإصبع. *تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن*. تحقيق حفني شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: مصر، (١٩٦٣م).

أوكتافيانا، أنيسة. الأسلوب التقابلي في سورة البقرة ودلالته. جامعة إسلام نيجيري، *مجلة جالي*، العدد(٢،١).

البهاري، محب الدين بن عبد الشكور. *سلّم العلوم في المنطق*. تحقيق مجاهد صغير أحمد صودهوري، ط١، (١٨٣١م)، بنغلاديش.

بيرلمان، شاييم؛ وأولبرختس، تيتيكا، لوسي. *المصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة*. ترجمة: محمد الولي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، (٢٠٢٣م).

الجرجاني، السيد الشريف. *التعريفات*. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، (١٩٨٣م).

الجرجانيّ، عبد القاهر. *دلائل الإعجاز*. تحقيق محمود شاكر، ط٣، مطبعة المدني: القاهرة، (١٩٩٢م).

ابن حزم الأندلسي. *الإحكام في أصول الأحكام*. ط١، دار الحديث: القاهرة، (١٤٠٤هـ).

خير ست الأمة. *الطباق في سورة البقرة وفوائده*. دراسة تحليلية من جهة علم البديع، جامعة كياهي الحاج أحمد صديق، جمبر، أندونيسيا، (٢٠٢٢م).

ابن سيده الأندلسي. *المخصص*. تحقيق خليل جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي، (١٩٩٦م).

الشافعي، محمد علي فرغلي. الطباق القرآني: جدلية التضاد وبنية الموازنة: دراسة في عرض قضية الإيمان، الكفر. *مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة*، جامعة الأزهر، العدد(٢٥)، (٢٠٠٦م)، ٣١٣-٤١٤.

عتيق، عبد العزيز. *علم البديع*. دار النهضة العربية: بيروت، لبنان، (د. ت).

ابن عرفة. *تفسير ابن عرفة*. تحقيق حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية: تونس، (١٩٨٦م).

عكاوي، إنعام. المعجم المفصل في علوم البلاغة. ط٢، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، (١٩٩٦م).

ابن فارس. *معجم مقاييس اللغة*. تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر: بيروت، (١٩٧٩م).

فراديبا، منتازي. *التضاد والطباق في سورة البقرة*. رسالة جامعية، جامعة شريف هداية الله بأندونيسيا، (٢٠١٦م).

فصيح، مقران؛ درغوم، عبد الناصر. الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة البقرة أنموذجًا. *مجلة المدونة*، ٧(٢)، ديسمبر (٢٠٢٠م)، ٦٣٩-٦٦٠.

القرطبي. *الجامع لأحكام القرآن*. تحقيق أحمد البردوني وزميله، ط٢، دار الكتب المصرية: القاهرة، مصر، (١٩٦٤م).

معماش، نهاد. حجاجية الأسلوب: سورة البقرة دون دونا. *مجلة جامعة الوصل للدراسات الإسلامية والعربية*، العدد(٥٨)، ديسمبر (٢٠١٩م)، ٥٣-٩٢.

المنجد، محمد نور الدين. التضاد في القرآن الكريم. ط١، دار الفكر: دمشق، سورية، (١٩٩٩م).

ابن منظور. *لسان العرب*. تحقيق عبد الله علي الكبير، دار المعارف: القاهرة، مصر.

منقور، عبد الجليل. *علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث اللغوي*. اتحاد الكتاب العرب: دمشق، (٢٠٠١م).

ناصر، عبد العزيز. *أثر الاتساق والانسجام في النص القرآني: سورة البقرة أنموذجًا*. أطروحة دكتوراه في العلوم، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة ابن خلدون، تيارت، (٢٠١٧م-٢٠١٨م).